

من عجب أنها ماكادت تصغى إلى دعوة الإسلام من حَمَلته الفاتحين ، حتى استجابت له طواعية ، وحملت لواء دينها الجديد داعية إليه مجاهدة في سبيله ، مشاركة في حركة المد الكبير للفتوح الإسلامية ، حتى بلغت بها أقاصى المشرق والمغرب . ونبتت كل ماضيها لتبدأ تاريخها الإسلامى ، أمة واحدة .

وفي نصف قرن فحسب ، كانت هذه الشعوب قد هجرت ألسنتها الأولى ، واختارت لغة القرآن لساناً لها ، وهى التى عصبت الزمن الطويل على المستعمرين الأجانب ، ففضوا عنها لم يخلفوا من بعدهم لغة لاتينية أو فارسية أو رومانية !

وسارت العربية مع القرآن الكريم حيث سار ، فإذا تراث الجاهلية من قصائد البدو وأراجيز الرعاة وأحاديث الفتيان في مسامر القرى ودروب الصحراء ، وموقف الشعراء في المواسم والأسواق ؛ تغدو تراثاً غالياً يلمسه الرواة الإسلاميون من بوادى الجزيرة التى احتفظت بنقاء عريبتها ، ويشدون من أجله الرحال إلى منازل القبائل ، ليأخذوا من أفواه الأعراب ما وعت ذاكرتهم من تراث الآباء والأجداد .

ثم عكفوا عليه ، يدونونه ويصنفون منه معجم ألفاظ الفصحى ، لغة الدين والدولة ، ويستقرئونه ليستنبطوا منه قواعد نحوها واشتقاقها وتصرفها ، وخصائص بيانها وموازين شعرها .

واستوعبت هذه العربية ، ما عرب المترجمون من تراث الفلسفة اليونانية ونظريات العلم والفكر القديم ، فأدّته عربى اللسان إسلامى الروح . . . ووسّعها ، فى طواعية مرنة وحيوية فذة وأصالة راسخة ، أن تستجيب لانتساع آفاق الدولة الإسلامية ، واعية لدورها الجليل فى الوفاء بجادات الحياة اللغوية للحضارة الإسلامية الرائدة ، ومدركة مغزى كونها لغة أمة قوية قائدة ، ولسان شعوب ذات عراقية فى المدنية والفكر والثقافة .

وما يزال التاريخ فى عجب من أمر هذه العربية : كيف استطاعت بعبقريّة فذة ، أن تأخذ مجراها الحيوى بين الأصالة والتطور ، لتكون لغة الدين والعلم والأدب والثقافة ، لشعوب تفاوت ميراثها الحضارى ، واختلفت سلاتمها اللغوية باختلاف ألسنتها الأولى ، وتحقق وجودها اللغوى محافظة على أنقى أصالتها العريقة ، ومتجددة مع الحياة التى لا تسمح بالبقاء لما لا يصلح للبقاء ؟ !